

الرق في المغرب والأندلس

خلال القرنين 5 - 6 هـ / 11 - 12 م⁽¹⁾

عبد الإله بنمليح

Abdeilah BELMLIH

نوقشت هذه الأطروحة برحاب كلية الآداب - ظهر المهرارز بفاس - بتاريخ 23 / 6 / 1999، واستهل الباحث تقريره عنها باستعراض بدايات اهتمامه بالموضوع وترجع إلى فترة بعيدة ارتبطت بالحكايات الكثيرة التي سمعها عن العبيد والإماء ونشاطاتهم وحضورهم في الأسر المغربية، وعلاقاتهم بسائر أفرادها، كما ارتبطت ببعض الأمثال الشعبية، التي ترددها الألسن حول الظاهرة، مما أثار فيه فضول الباحث الهاوي لأخبار العبيد والإماء...، ومع مرور الأيام بدت له فكرة البحث في موضوع الرق في المغرب والأندلس، فانتقل بالفكرة من مستوى البحث الهاوي إلى مستوى البحث الأكاديمي، ورحب الأستاذ المشرف الدكتور محمود إسماعيل بتلك الفكرة وربطها بضرورة الوعي بصعوبة المعالجة المتمثلة أساسا في شح المصادر وهزال النصوص وتناثرها في ثنايا مؤلفات مختلفة المشارب والاتجاهات. وقد كان لتشجيع الأستاذ المشرف وتبنيهاه أثر كبير في تحفيز الباحث على الاهتمام بهذا الموضوع واندفاعه نحو البحث فيه.

تندرج دراسة الرق في المغرب والأندلس ضمن التاريخ الاجتماعي، باعتبارها تهتم بفئة اجتماعية من حيث نشاطها وحركيتها ووضعياتها وأدوارها... وهو ما استلزم دراسة ذات بعدين، في نظر الباحث:

- بعد تاريخي، يسعى إلى الكشف عن تطور الظاهرة الاجتماعية في الزمان والمكان.

¹ - أعد التقرير للنشر: محمد استيتو، نقلا عن الأصل الذي تلاه الباحث أمام لجنة المناقشة.

- بعد سسيولوجي، يهدف إلى إبراز الظاهرة الاجتماعية في محيطها وفي علاقتها بمكونات المجتمع.

1 - أهمية الموضوع

تتبع أهمية البحث في الرق في المغرب والأندلس من كونها لا تسقط من حسابها سائر مكونات المجتمع. فقد ارتبط الرق بالأسرة، كما ارتبط بالفقيه والأديب وغيرهما من أفراد النخبة، ودخل الرقيق أيضا في علاقة مع السلطة السياسية، بحكم انتشاره في مؤسساتها الإدارية والعسكرية خاصة، وانخرط الرقيق في الحياة الاقتصادية مساهما في معظم أنشطتها الزراعية والحرفية والتجارية، مما يصح اعتباره نافذة نموذجية لدراسة المجتمع والاقتصاد من زاوية معينة هي الرق.

وتعددت رؤى دراسة موضوع الرق وتنوعت بين سسيولوجية ظهرت في وقت مبكر⁽¹⁾، ورؤية اقتصادية⁽²⁾، ورؤية أنثربولوجية⁽³⁾، بينما غابت الرؤية التاريخية.

ويأتي هذا البحث لينضم إلى هذه الرؤى، ويحاول المساهمة، إلى جانبها، في رصد تطور ظاهرة الرق في مجال معين هو المغرب والأندلس، وفي زمان محدد بالقرنين 5 - 6 هـ / 11 - 12 م، لعله يضيف بذلك بعدا آخر للظاهرة هو البعد التاريخي.

وأوضح الباحث أن اختياره لفترة زمنية تمتد قرنين من الزمان يستند إلى الرغبة في تجاوز صعوبة أساسية تتمثل في قلة المادة المصدرية، ووعيا منه أن الامتداد الزماني يتيح الوقوف على تطور الظاهرة من حيث استمراريتها أو انقطاعها، واندفاعها أو قصورها... ولهذا السبب لم يعتمد صرامة مطلقة في التقيد بهذه الفترة الزمنية. فقد أثر، في مناسبات عديدة،

¹ - نموذج : Contribution à une théorie sociologique de l'esclavage. 1931 Ali ABDELWAHED;

³ - عبرت عنها بحوث، مثل: Esclavage = Facteur de production. L'économie politique de l'esclavage. 1981.

³ - أبرزها: Claude MEILLASSOUX; Anthropologie de l'esclavage. 1986.

تأصيل ظاهرة ما ترتبط ارتباطا وثيقا بالرق فرجع إلى ما قبل القرن 5 هـ/11م، وطالما تجاوز القرن 6 هـ / 12م، تحدوه الرغبة والفضول العلميين في معرفة آفاق الظاهرة، موضوع الدراسة.

وقد وفر القرنان المعنيان بالدراسة أرضية خصبة للبحث، بفضل الحركية التي طبعتهما، فهما يؤرخان، على المستوى الداخلي، لصراعات عديدة ونزاعات ذات بعد جهوي، كما يؤرخان لسجالية الصراع الإسلامي-المسيحي على أرض الأندلس، في ما يعرف بحركة الاسترداد الإسباني (Reconquista).

2 - منهج البحث

وبغية الإحاطة بمعظم جوانب الموضوع، واستجابة لما يمليه البحث التاريخي، وضع الباحث نصب عينيه منهجا محددا لدراسة الرق في المغرب والأندلس، ساعده على رصد حياة الرقيق وتدرجه في مختلف القطاعات المجتمعية. ويقوم هذا المنهج على ثلاث مقاربات، هي:

- مقارنة أولى، انطلقت من تحليل شمولي، بحث في المؤشرات الكبرى لحضور الرقيق في المجتمع المغربي-الأندلسي، ويأتي على رأس هذه المؤشرات جذور الرق في المغرب الإسلامي، ثم روافد الاسترقاق إضافة إلى مصادر الرقيق وتوزيعه الإثني والمجالي والزمني.

- مقارنة ثانية، انتقلت إلى تحليل جزئي دقيق، انصب الاهتمام من خلالها على دراسة الوضعية القانونية للرقيق انطلاقا من القرآن الكريم، والسنة النبوية، واجتهادات الفقهاء، مشاركة ومغاربة، كما انصرف الاهتمام أيضا إلى الوضعية الاجتماعية، ممثلة في أسلوب حياة الرقيق ونشاطاته، وحركيته في المجتمع. وكشفت المقابلة بين الوضعتين - القانونية والاجتماعية - عن مفارقة كبيرة بين نصوص فقهية تعطي للرقيق وجودا خاصا، وبين واقع اجتماعي يتسم بالدونية والضعف والتهميش.

- مقارنة ثالثة، اعتمدت أسلوبا تركيبيا، هدفه إبراز أدوار الرقيق في المجتمع وتأثيراته فيه، لاسيما على المستويات الاقتصادية والثقافية والسياسية.

ووضعت الدراسة التاريخية للرق في المغرب والأندلس خلال القرنين 5 - 6 هـ / 11 - 12م الباحث أمام مشاكل منهجية حاول تجاوزها، قدر الإمكان، باعتماد شرطين أساسيين، أولهما: التكامل، حيث عمل جاهدا على الاستفادة من المصادر المتاحة، مع عدم ركونه إلى يقينيتها إلا في حال تراكم

الشهادات وتعددتها. وثانيهما: التمثيلية، وقد اضطر إليها بغية عدم إهمال إشارة شاردة، معتبرا إياها ممثلة לנוعها، وربما صدق لفعل جماعي.

3 - مصادر البحث

اعتمد البحث مجموعة من المصادر والمراجع، تنوعت بين مؤلفات عن الرق، على رأسها: "رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد" لابن بطران، و"هداية المريد في تقليب العبيد" لمحمد الغزالي، و"معراج الصعود إلى نيل مجلب السود" لأحمد ببا التبتكتي، ثم كتب التاريخ والحواليات، وهي عديدة تشق على الحصر، مثل: "مذكرات الأمير عبد الله بن بلكين"، و"المقتبس" لابن حيان، و"أعز ما يطلب" للمهدي بن تومرت، و"أخبار المهدي" للبيذق، و"رسائل موحديّة"، و"البيان المغرب" لابن عذاري، و"كتاب العبر" لابن خلدون... فضلا عن مصادر فقهية مشرقية ومغربية ذات توجهات فكرية مختلفة، سنية مالكية، مثل "الموطأ" للإمام مالك، و"رسالة ابن أبي زيد القيرواني"، و"المقدمات الممهّدات" لابن رشد، و"النظر في أحكام النظر بحاسة البصر" لابن القطان، وأخرى خارجية إباضية، مثل كتاب ابن سلام الإباضي، وجامع أبي سعيد الكدّمي، ودعائم ابن النظر العماني، وجامع ابن الحواري، وكتاب النكاح للجناوني، وأخرى ظاهرية، مثل "المحلى" لابن حزم الأندلسي، إلى جانب كتب الفتاوى، مثل "توازل ابن الحاج"، و"مذهب الحكام" للقاضي عياض وولده، و"فتاوى ابن رشد"، ثم كتب الحسبة، مثل "كتاب في آداب الحسبة" للسقطي، و"رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة"، ثم كتب الوثائق والأحكام، مثل "الوثائق المختصرة" للغرناطي، و"وثائق المرابطين والموحدين"، المنسوب إلى عبد الواحد المراكشي، و"العقد المنظم للحكام" لابن سلمون الكناني.

هذا فضلا عن كتب الجغرافيا والرحلات، مثل "أحسن التقاسيم" للمقدسي البشاري، و"صورة الأرض" لابن حوقل، و"المسالك والممالك" للبكري، و"نزهة المشتاق" للإدريسي، و"الجغرافية" للزهري، وكتب التراجم، مثل "طبقات علماء إفريقية" للتنميمي، و"ذخيرة ابن بسام"، و"بغية الملتمس" لابن عميرة الضبي، و"التشوف" لابن الزياد التادلي، و"فقهاء مالقة" لمحمد بن خميس، و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك الأنصاري المراكشي، أو مؤلفات ذات طابع أدبي، مثل الدواوين الشعرية، كدواوين ابن دراج القسطلي، وابن خفاجة، وابن الزقاق البلنسي، والأعمى التطيلي، وابن قزمان، وابن سهل،

ومؤلفات أدبية نثرية، مثل "الإمتاع والمؤانسة" للتوحيدي، و"طوق الحمامة" لابن حزم، و"قلائد العقيان" لابن خاقان.

وهناك كتب متنوعة أخرى، في السياسة، مثل "كتاب في السياسة" لأرسطو، و"الإشارة" للمرادي الحضرمي، و"سراج الملوك" للطرطوشي، و"سلوك المالك" لابن أبي الربيع، وكتب ذات طبيعة خاصة، مثل "الإشارة في محاسن التجارة" للدمشقي، و"الذخائر والتحف" للقاضي ابن الزبير، ثم كتب الأمثال، كأمثال العوام في الأندلس للزجالي القرطبي، و"مائة وألف مثل"، التي جمعها محمد أشماعو... وتم الاعتماد كذلك على بعض الوثائق الخاصة، مثل وثيقة في عتق عبد مشترك، وبعض وثائق محتسب مكناس، العربي أجانا، إلى جانب الاستئناس ببعض الروايات الشفوية، ولاسيما على أمثال شعبية أو أخبار تهم رقيق مدينة فاس خاصة.

أما على مستوى الدراسات، فقد سجل الباحث غياب دراسة شاملة عن الرقيق في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، بصفة خاصة. غير أنه في مقابل ذلك استفاد من بعض المقالات التي أمدته بإفادات كبرى، اعترف بأهميتها في توجيه البحث برمته، على رأسها مقال الباحث إبراهيم القادري بوتشيش حول: "مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ومقال الباحث محمد الطالبي بعنوان : Droit et économie en Ifriqiya au

" III-IX siècles ، ومقال الباحث الهولندي فان كوننسفلد Va n KONINGSVELD : "الأسرى المسلمون في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة"، ومبحث من كتاب L'esclavage dans l'Europe médiéval " Charles VERLINDEN للباحث البلجيكي شارل فرلندن

وعبر الباحث، في هذا السياق، عن أمله في أن يسهم عمله هذا في سد فراغ تعاني منه المكتبة المغربية في موضوع الرق، إلى جانب الأطروحة الرائدة للأستاذ محمد الناجي حول "الرق والعلاقات الاجتماعية في مغرب القرن 19"، ورسالة عائشة قريوط حول "الأسرى والعبيد بالمغرب من القرن 15 إلى منتصف القرن 17م".

4 - صعوبات البحث

اعترضت الباحث مجموعة من الصعوبات على رأسها شح المادة المصدرية وتناثرها، مما تطلب منه جهدا كبيرا في قراءة العديد منها واستخلاص حصيلة لا تشفى الغليل، ثم غياب صوت الرقيق، أو ما أسماه

موريس لنجل Maurice LENGELLE "الصمت التاريخي للعبيد"، ذلك أن الافتقار إلى نصوص تعبر عن وجهة نظر الرقيق كان من عوائق النظرية الموضوعية إلى البحث ككل، غير أن الوقوف على إشارات تتمثل في شكاوى العبيد وأناتهم حقق للبحث بعض التوازن المفتقد، وإن كان ذلك دون ما كان يطمح إليه الباحث.

وعلاوة على هذه الصعوبات واجه البحث مشكلة كبرى تتمثل في تداخل معاني المصطلحات ودلالاتها، ذلك أن معجم موضوع الرقيق غني جدا ويتداخل مع معاجم مواضيع أخرى، ومن ذلك مثلاً مصطلحات "جارية" و"غلام" و"فتى"، التي يصعب التعويل على السياقات التي وردت فيها في سبيل ضبط دلالتها الرقية.

كما أن الباحث لم يسلم من تبعات توجه الكتابة عن الرقيق إلى الرقيق المدني منه وإغفال الرق الريفي، بالرغم من وقوفه على مادة لا بأس بها تهم عبيد البادية وإماءها، استقاها من كتب إياضية. لذلك فإن أملة معقود على إيلاء هذا الشق الأساسي عناية خاصة في المستقبل.

5 - خطة البحث

اعتمد البحث خطة واضحة تقوم على تسلسل منطقي قدر الإمكان، ولم يكن إقدام الباحث على تقديم صورة تجزئية لبعض عناصر الموضوع إلا اضطراراً إجرائياً، اقتضته الخطة. وهكذا تم تقسيم البحث إلى قسمين من سبعة فصول:

- عني القسم الأول بالموثرات الكبرى لحضور الرقيق في المجتمع المغربي - الأندلسي، سواء قبل القرن 5 هـ / 11 م، أو خلال فترة الدراسة، عبر تحديد روافد الاسترقاق، ومصادر الرقيق، وتجارته في بلاد المغرب والأندلس.

- واهتم القسم الثاني بأوضاع الرقيق وأنشطته على المستويات الاقتصادية والثقافية والسياسية، حيث تناول القضايا الحيوية التالية:

أ - الوضعية القانونية للرقيق من خلال إبراز صورته في الأدبيات الفقهية وأساليب معاملته، وبعض ممارساته من خلال الأحكام الفقهية.

ب - حركية الرقيق ضمن المجال الاقتصادي، وأثر ذلك في وضعيته الاجتماعية، ابتداءً بغذائه، ولباسه، ومسكنه، وظروف عمله، وعلاقته بسائر مكونات الأسرة التي عاش في كنفها.

ج - بروز الرقيق في الحياة الثقافية، انطلاقا من تعليمه، وسبل اكتسابه العلم والمعرفة، إلى ولوجه مرحلة العطاء والإبداع، في ما سماه الباحث "تراث الرقيق". وتمت الاستعانة في رصد الدور الثقافي للرقيق بجداول تتضمن أسماء رقيق وموالي اكتسب أصحابها حظا من العلم والحقول المعرفية التي نبغوا فيها، من أدب وفقه وحديث وعلوم...

د - دور الرقيق في الحياة السياسية من خلال المواقع الثلاثة التي وجد فيها، وهي:

— موقع أول مؤازر للسلطة ومنخرط في مؤسساتها وحروبها.

— موقع ثان في السلطة ذاتها، لاسيما في الشرق الأندلسي.

— موقع ثالث في معارضة السلطة، من خلال دعم حركات التمرد والعصيان، إلى جانب محاولة ركوب مد الثورة ضدها. وأمام حقيقة غياب ثورة للرقيق في المغرب، على عكس ثورة الزنج في المشرق الإسلامي أو في أوروبا في مراحل تاريخية سابقة، حاول الباحث تفسير أسباب هذا الغياب مسترشدا بالظروف التي كانت وراء قيام هذه الثورات في المجتمعات السلفية الذكر.

وتم تقديم الأطروحة بمقدمة تناولت أسباب اختيار هذا البحث، موضوعا ومجالا ومصطلحا، والمنهج المعتمد في مقاربتة إلى جانب دراسة بيبليوغرافية للمصادر والدراسات المعتمدة. أما الخاتمة فتم التركيز فيها على خلاصات البحث وآفاقه.

والحق بالعمل مجموعة من الملاحق بلغت 43، تنوعت بين رصد الإنتاج المعرفي في الرقيق وبين وثائق تهم الرقيق، من زواجه، وطلاقه، وعتقه، فضلا عن رسائل صادرة عن الرقيق أو موجهة إليه. كما تمت الاستعانة بخريطتين توضحان أهم المسالك الجغرافية لتجارة الرقيق نحو المغرب والأندلس، وأهم محطات هذه التجارة في أوروبا أو في إفريقيا. وذيّل البحث بمجموعة من الفهارس الخاصة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأمثال الشعبية، والأشعار، والخرائط التي تضمنها العمل، فضلا عن قائمة للمصادر والمراجع المعتمدة.

6 - خلاصات البحث وآفاقه

تعددت الخلاصات التي انتهى إليها الباحث، منها:

- أ - إن الحرب كانت الرافد الأساس للاسترقاق في المغرب والأندلس، خلال الفترة المعنية بالبحث.
- ب - غلبة الرقيق الإفريقي السوداني في المغرب، وغلبة الرقيق الأبيض الصقلبي في الأندلس.
- ج - قيام تجارة حقيقية للرقيق في العدوتين، تعبر عنها الأسواق من جهة والمنازعات التي كانت ترافق عمليات البيع والشراء، والتي استوجبت تدخل الفقهاء والدولة لضبط هذه العملية، من جهة ثانية.
- د - تحكم النظرة الدونية إلى الرقيق في حركيته، وتعطيلها لعملية اندماجه في المجتمع، مما أدى إلى تهميشه.
- هـ - موسمية عمل الرقيق في الزراعة، وهو ما يفسر غياب الحديث عنه في الكتابة التاريخية وغيرها مما وقف عليه الباحث.
- و - إن الخدمة المنزلية كانت أكثر استئثارا للرقيق.
- ز - صعوبة الحديث عن نظام اقتصادي مغربي-أندلسي مبني على الرق لكون الرقيق عنصرا أساسيا في تركيب القوى المنتجة ولاقتصاد وجوده على الأسر الميسورة، ولكون عناصره أجنبية عن المجتمع المغربي-الأندلسي.
- ح - تأكيد خلاصة سابقة حول انعزال الرقيق في البيوت وعدم تكتله في عمليات الإنتاج تفسيرا لغياب ثورته، وليس لوضعيته الاجتماعية دور في ذلك...
- ط - اعتبار الرقيق أحد روافد انتقال الثقافة من مجتمع إلى آخر، ومن جيل إلى جيل آخر.
- غير أن هذه الخلاصات، تبقى - في نظر الباحث - في حاجة إلى مراجعة شاملة اعتمادا على مادة مصدرية جديدة، لم يقدر له الاطلاع عليها، واعتمادا أيضا على جهود باحثين آخرين يحملون الهم نفسه، ومن بين المواضيع التي يعتقد أن طموحه وقف عندها ولم يوفق في إجلاء غموضها:
- توزيع الرقيق مجاليا ودينيا على الخصوص.
 - طبيعة العلاقة بين الرقيق نفسه.
 - صوت الرقيق.
 - أثر ثقافة الرقيق الأصلية في المجتمع الذي وفد عليه.
 - مآل الرقيق المعترك والأبق.